

## الجدور الأيدولوجية للتطرف

(( في الفكر المحسوب على الدين ))

المهندس عدنان الرفاعي

.. حينما تُدفع منظومة الوعي الضابط لفكر الأمة وثقافتها نحو سبيل إلغاء الآخر ، واحتكار الخلاص ، واتهام الآخرين بالكفر والزندقة لمجرد أنهم آخرون .. حين ذلك تكون الأمة قد غاصت في مستنقع التطرف ..

.. وللوقوف على حقيقة الجدور العميقة للتطرف ، لا بد من الوقوف عند حقيقة الفكر الذي يستمد منه المتطرفون بذور تطرفهم ، ولا بد من الوقوف - أيضاً - عند حقيقة الواقع الذي يعيشه المتطرفون ، والذي يعد التربة والمناخ الذي تنبت فيه تلك البذور ..

.. وفي الفكر الديني يتجلى التطرف في أشع صورته ، كون المتطرف ينطلق من تصورات يحسبها مراد الله تعالى ، وينطلق من تكليفه لنفسه بأنه الناطق باسم الله تعالى فوق هذه الأرض ، وأنه يجسد مراده .. وهذا ما حدث مع بعض أتباع الرسالتين السماويتين السابقتين للإسلام ..

( وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ) ( المائدة : ١٨ )

.. وبالتالي فالغارق في مستنقع هذا التطرف الفكري ، لا يُراجِعُ نفسه له ولا يستخدم عقله ، مهما بلغ حجمُ جرمته ، ومهما أساء للآخرين ، لأنه يعتقد أنه يقف مع الله تعالى في خندق واحد معاد للخندق الذي يقف به أولئك الآخرون ..  
.. وقد تجلّى هذا الغلو في أنفس الذين كفروا من بني إسرائيل ، ولذلك يصح فهم الله تعالى بقوله :

( كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ) ( المائدة : ٧٩ )

.. إذا .. الجدور الأولى للتطرف الديني ، هي غلوٌ يبدأ بتضخيم الذات ، مروراً بتقزيم الآخر ، وصولاً إلى إلغائه وإخراجه من دائرة الإيمان والخلاص ، وبالتالي انتهام الآخريين بالكفر لأنهم ليسوا في دائرة تلك الذات ..

( وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) ( البقرة : ١١١ )

.. وحتى يحيا هذه التطرف ويستمر في الأجيال اللاحقة ، لا بد له من نصٍ ووصٍ يستند عليها تتوارثها تلك الأجيال .. من هنا يبدأ الوضع على الرسل عليهم السلام ، ويبدأ التحريف والتلفيق الذي ينسب إلى الرسل عليهم السلام ، مع أنهم براء منه ..  
.. وهذا الغلو في إنكار الآخر واحتكار الخلاص ، لا ينجو منه الواقفون في خندق واحد ، فبعد أن يلغوا الآخرين ، يبدوون بإلغاء بعضهم بعضاً ، كلٌّ يتعصب لإطارٍ أضيق يُنكر - من خلاله - على الآخرين إطارهم الذي أطروا أنفسهم به ..

( وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) ( البقرة : ١١٣ )

ففي قوله تعالى ( كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ) ، بيان أن إلغاء الآخر واتهامه بأنه ليس على شيء يُخرج الإنسان من ساحة العلم ، وبالتالي يدخله في دياجير الظلام ..

.. إذا .. التطرفُ غُلُوٌّ يبدأ بِالغَاءِ الآخِرِينَ عبر ساحةٍ مُعَيَّنَةٍ ، لِيَمْتَدَّ إلى سِ مَاحَاتِ أَضِيقَ دَاخِلِ تِلْكَ السَّاحَةِ ، وَبِالتَّالِيِ شَرِذِمَةُ الأُمَّةِ إلى مَذَاهِبٍ وَطَوَائِفَ وَفَرَقٍ يُلْغِي كُلُّ مَنهَا الأَخرِ .. وَلَمَّا كَانَتْ مَادَّةُ هَذَا التَّشْرِذِمِ نِصْوَصاً تَارِيخِيَّةً تُقَدِّمُ عَلَيَّهَا مِنْ جِ وَهَرِ مَنهَجِ اللهُ تَعَالَى ، بَعْدَ تَلْفِيْقِهَا وَنَسْبِهَا إلى الرِّسْلِ عَلِيْهِمُ السَّلَامِ ، فَإِنَّ هَذَا التَّطَرُّفَ - فِي حَقِيقَتِهِ - شَرِكٌ بِاللَّهِ تَعَالَى ، مِنْ خِلَالِ تَقْدِيمِ التَّارِيخِ بِرِوَايَاتِهِ وَرِجَالَاتِهِ وَأَصَمِ نَامِهِ الفِكْرِيَّةِ ، مَنهَجاً بَدِيلاً عَنِ مَنهَجِ اللهُ تَعَالَى .. وَهَذَا مَا نَرَاهُ جَلِيّاً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ..

( وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ( ٣١ ) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ) ( الرُّومُ : ٣١ - ٣٢ )

.. هَذَا الغُلُوُّ وَالتَّطَرُّفُ وَمَا يُنْتِجُهُ مِنْ تَجْزِئَةِ أبنَاءِ المَدِينِ الوَاحِدِ إلى مَذَاهِبٍ وَطَوَائِفَ مُتَنَاحِرَةٍ ، يَجْعَلُ مِنْ أبنَاءِ الدِّينِ ذَاتِهِ المُنْتَمِينَ إلى مَذَهَبٍ آخَرَ أَوْ طَائِفَةٍ أُخْرَى - يَجْعَلُ مِنْهُمْ - أَكْثَرَ عِدَاوَةٍ حَتَّى مِنْ أبنَاءِ الأَدْيَانِ الأُخْرَى ، وَبِالتَّالِيِ يَدْفَعُونَ مِنْ دِمَائِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِهِمْ نَتِيجَةَ - هَذَا التَّطَرُّفِ - ثَمناً بَاهِضاً ، أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا يَدْفَعُهُ أبنَاءُ الأَدْيَانِ الأُخْرَى .. وَالحُرُوبُ الدِّينِيَّةُ - فِي أوروْبَا - بَيْنَ أبنَاءِ الدِّينِ الوَاحِدِ لِأكْبَرِ دَلِيلٍ عَلَيَّ ذَلِكَ ..

.. وَفِي تَارِيخِ المُسْلِمِينَ وَتَفَاعُلِهِمْ مَعَ الفِكْرِ المَحْسُوبِ عَلَيَّ الإِسْلَامِ ، نَرَى الأَمْرَ بِذَاتِهِ ، فَتَرَى صُورَةَ مُطَابَقَةٍ تَمَاماً لَمَّا حَدَثَ مَعَ أَهْلِ الكِتَابِ .. فَفِي حِينِ أَنْ أَهْلَ الكِتَابِ زَعَمُوا احْتِكَارَ الخِلاصِ : ( وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَاراً ) ، نَرَى الكَثِيرَ مِنَ المُسْلِمِينَ يَزْعَمُونَ أَيْضاً أَنَّ الجَنَّةَ - بَعْدَ مَبْعَثِ الرِّسْلِ مُحَمَّدٍ ﷺ - حِكْرٌ عَلَيَّ المُسْلِمِينَ ، مُعْرَضِينَ عَنِ الدَّلَالَاتِ الوَاضِحَةِ وَضُوحِ الشَّمْسِ وَسَطِ النَّهَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

( لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءاً يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ( ١٢٣ ) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيراً ) ( النِّسَاءُ : ١٢٣ - ١٢٤ )

.. وفي حين أن أهل الكتاب زعموا عدم الخلود في النار لمن يدخل منهم النار : ( وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً ) ( البقرة : ٨٠ ) ، زعم المسلمون الزعم نفسه ، عبر تليفيق الكثير من الروايات ونسبها إلى الرسول ﷺ ، معرضين عن دلالات الكثير من آيات كتاب الله تعالى التي تنقض ما يذهبون إليه ..

.. وفي حين تشردم أهل الكتاب إلى الكثير من الطوائف والمذاهب المتناحرة التي يفتك بعضها ببعض ، نرى الأمر ذاته بين المذاهب والطوائف الإسلامية التي يخطئ بعضها بعضاً .. يقول تعالى واصفاً هذه السنة البشرية :

( بِأَسْمِهِمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ) ( الحشر : ١٤ )

.. إذا .. التطرف بماهيته المجردة ليس له دين محدد ، ولا قومية محددة ، لأنه من صناعة أهواء البشر وعصبياتهم ، ولا علاقة له بدين الله تعالى .. والمشكلة الكبرى أن المتطرف يعد نفسه مظلوماً ، لأن الأوهام التي تملأ نفسه ويحلم بها لم تتحقق على أرض الواقع ، فأيديولوجيا التطرف تحجبه عن رؤية حقوق الآخرين ونقطة ما بالائتداء معهم ..

.. والفكر المتطرف ليس منهجياً بالمعنى الحقيقي للمنهجية العلمية في التفكير ، وهذا أمر طبيعي كونه فكراً جمعياً مبنياً من لبنات التاريخ وأساطيره التي تقدم على أنها عين مراد الله تعالى ، فالمنهجية العلمية في التفكير ، والتي تعتمد على ثنائية القرآن الكريم والعقل المجرد عن أصنام التاريخ ، تسقط الكثير من أسس التطرف ، وتفقد هويته ، ولذلك فالفكر المتطرف يقاوم العقل والتدبر حتى لكتاب الله تعالى ( القرآن الكريم ) ، وهذا ما نراه من حرب شعواء يشنها المتطرفون على كل فكر جديد ، لمجرد أنه جديد ..

.. والقاسم المشترك في الفكر المتطرف عند جميع الأمم - دون استثناء - يتجسد في تصور مؤامرة مستمرة من عدو يتم تحميله مسؤولية الفشل ، ويسهتخدم كمانعة

صواعق ، للحيلولة دون انهيار منظومة الفكر المتطرف من جهة ، ويُستخدم كذريعة للهروب من الاستحقاق العقلي والواقعي والموضوعي ، وذلك من خلال اتهام أصحاب العقل والموضوعية بالكفر والعمالة ..

.. نحن لا نُنكر وجود المؤامرات التي تُحاك ضد هذه الأمة ، وضد أي أمة ، فمن البديهي أن يتآمر العدو على عدوه ، ولكن المشكلة تكمن في كون الفكر المتطرف لا يرى الأمور والأشياء كنتيجة موضوعية للمقدمات التي تأخذ بها الأمة ، ويأخذ مذبح أعداؤها ، إنما يراها مجرد مؤامرة ، فلا يرى نوحه الحضاري إلا بتدمير الآخرين ، ولا يرى أي مساحة للمشارك الإنساني في بناء الحضارة حتى مع أبناء دينه من الطوائف الأخرى ..

.. فالمتطرف يسمع ما يريد ، ويرى ما يريد ، ويزيده تطرفاً المتطرفون في الجانب الآخر ، مما يفرز حالة من الفعل ورد الفعل ، تُغرق المجتمع في أحوال ذلك التطرف ، لدرجة يلغى فيها العقل تماماً ، وتَصمُّ فيها الأذان ، ويصبح المتنور غريباً ومتهماً بالكفر والعمالة ..

.. وإلا كيف بنا أن نُفسر الاقتتال الذي نراه بين الأشقاء في العراق ؟ .. وكيف بنا أن نُفسر تكفير من يؤمن بالقرآن الكريم ويقوم بأركان الإسلام مجتمعة ؟ .. وكيف بنا أن نُفسر تفجير بيوت العبادة ومدارس الأطفال وأسواق الباعة ؟ .. كل ذلك إنما حصل ويحصل نتيجة المناجزة بالدين ، ونتيجة عدم فصل الدين عن السياسة ، ونتيجة الاستخفاف بعقول العوام ، عبر دفعهم نحو الهاوية التي تحرقهم - في الدنيا والآخرة - وذلك تحت قناع الدين والدفاع عنه ، وكأن دين الله تعالى لا يستقيم إلا بقتل الآخرين .. فكلُّ يصنع من رواياته وبعض رجالات التاريخ وبعض مشايخه أصناماً مقدسة ، من يقترب منها يستحق الموت ، وبالتالي هو ذاته يُوضَع في ساحة استحقاق الموت من وجهة نظر متطرف آخر في الجانب الآخر ، لأنه لم يُقدَّس أصنام التاريخ لذلك الآخر ..

.. من هنا نرى أهمية فصل الدين عن السياسة ، وفصل السياسة عن الدين ، وأهمية المساواة في المواطنة والحقوق والواجبات بين أبناء الوطن الواحد ، مهما كانت انتماءاتهم الدينية والمذهبية .. ولو قرأ المتطرفون عند جميع الأديان والمذاهب والطوائف - دون استثناء - قول الله تعالى :

( لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ) ( البقرة : ٢٥٦ )  
( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ) ( يونس : ٩٩ )

( وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ) ( الكهف : ٢٩ )  
.. لو قرؤوا ذلك بتجردٍ عن أصنامهم الفكرية وآمنوا به ، لعرفوا عمق غرقهم في أوحال التطرف ..

.. ولو أنهم قرؤوا قول الله تعالى :  
( وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) ( النساء : ٩٤ )

لعلموا أنه لا يمكن لإنسان أن يكفر إنساناً مسلماً غير معتد ، بل لا يمكنه أن يصفه بعدم الإيمان .. وبالتالي فإن قتل هذا الإنسان ، يدفع القاتل إلى ساحة المعنى بين بقوله تعالى :

( وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ) ( النساء : ٩٣ )

.. لو أنهم يؤمنون بهذه الآيات الكريمة ، إيماناً صادقاً يخشعون به لقول الله تعالى ، ولو أنهم يسمعون دلالاتها الواضحة ، بعيداً عن التفسيرات التاريخية ، لعرفوا الحق .. ولو أنهم استخدموا عقولهم والفطرة النقية التي فطر الله تعالى الناس عليها لعرفوا ذلك الحق ..

.. فالإصغاءُ إلى كتاب الله تعالى دونَ أصنامِ التاريخ ، ودونَ فِ مرضِ النفسِ ييرات  
الفاسدة وروايات التاريخ على دلالات آياته ، أو استعمالُ العقلِ بعيداً عن أوهام تلك  
الأصنام .. أيُّ من هذين السبيلين ، يدفعُ الإنسانَ إلى عِلْمِ الحقيقة ، وبالتالي يُخرجُ به  
من سعيهِ التطرفِ الأعمى :  
( وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ) ( الملك : ١٠ )

والله تعالى وليّ التوفيق

المهندس عدنان الرفاعي